﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٤٠﴾ [غافر: 38 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

دَعْـوَةُ الـرَّجُـلِ المُؤْمِنِ قَوْمَهُ

لَمّا ذكر اللّهُ تعالى ما لحالِ فِرعون مِنَ الفساد، وكان ذلك الفسادُ أظهرَ مِن أن يُحتاج إلى بيانٍ؛ أعرضَ الرَّجلُ المؤمنُ عنه مُصَرِّحًا، وملوِّحًا إلى ما ذكرَهُ اللّه تعالى عن فرعونَ مِن إحاطة العذابِ بِهِ، في قولِهِ مُناديًا قومَه على وجهِ الاسْتِعْطافِ لَهُمْ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّشَادِ﴾: (رشد) تدلُّ اشتقاقاتُها على اسْتِقامَةِ الطَّريقِ، والرُّشْدُ والرَّشَدُ والرَّشادُ: خِلافُ الغَيِّ[2]، وحقيقتُهُ: الهُدى والاسْتِقامَة[3]. وهو المرادُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

2) ﴿مَتَٰعٞ﴾: (متع) تدور تصريفاتُها على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[4]. ومِنْهُ قولُه تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [هود: 3] أي: يَبْسُطُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنيا ويرزقكم مِنْ زينتِها، ويَنْسَأُ لَكُمْ في آجالكم إلى وقتِ وفاتِكُمْ، ولا يَسْتَأْصِلُكم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والحميريّ، شمس العلوم: (رشد).
(3) الحميديّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 174.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).

بِعذابٍ[1]. ومِنْهُ: المَتاع؛ وهو في الأصْل: كلّ شَيْء يُنتفَع بِهِ انتفاعًا مؤجَّلًا، وهو المرادُ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾[2].

3) ﴿ٱلْقَرَارِ﴾: (قرّ) تدلُّ كثير مِن تصاريفِهِ على التَّمَكُّنُ[3]، يُقال: قرَّ الشَّيْءُ يَقِرُّ قَرارًا؛ إذا ثَبَتَ في مَكانِهِ، ولم يَتَحَوَّلْ، ويأْتي بِمعنى: الاقْتِرانِ والتَّلازُم، يُقالُ: قَرَّ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ: إذا قُرِنَ بِهِ، وتَرافَقَ مَعَهُ، ويُطْلَقُ القَرارُ على الشَّيْءِ الثّابِتِ الباقي في مَكانِهِ أو على حالِهِ كالأرْضِ والبِناءِ، ومِنْ مَعانيه أيضًا: الإقامَةُ، والاطْمِئْنانُ، والسُّكونُ[4]. والمراد بالقَرارِ في الآية: الثُّبوتُ في المَكانِ، وذلك لخلودِها ودوامِ ما فيها[5].

4) ﴿يُرْزَقُونَ﴾: (رزق) تدلُّ تصريفاتُها على معنى العَطاء[6]، مِنْ قولهم: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، والمَصْدَر: الرَّزْقُ - بفتح الرّاءِ - ، والرِّزْقُ - بالكسر -: هو الاسمُ، وقد يُستعمل بمعنى المَصْدَر[7]. ويُطلق الرِّزقُ إطْلاقاتٍ متعدِّدةٍ[8]؛ أوَّلُها: العطاءُ الجاري، ومِنْهُ قوله: رَزَقَ السُّلطانُ جُنْدَه. ثانيها: ما يَصِل إلى الجَوْف ويُتَغذّى به، ومِنْهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا»[9]. ثالثُها: على كُلِّ خَيْرٍ وصَلَ إلى صاحبِه، ومِنْهُ قَوْلُهُم: رَزَقَ اللهُ فلانًا عِلْمًا. وحَمْلُ الرِّزْقِ في الآيةِ على العُمومِ أوْلى وأنْسَبُ لبلاغة القرآنِ القائمةِ على وفرة المعاني؛ فيكون الرِّزْقُ شاملًا لكلِّ ما تقدَّمَ.

5) ﴿حِسَابٍ﴾: (حسب) تدُلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ؛ منها: العَدُّ[10]، ومنه: الحِسابُ؛ وهو استعمالُ العَدَدِ[11]، ومنه أيضًا: الحَسَبُ؛ وهو الفَعال الحَسَنُ لَهُ ولآبائه، مَأْخوذ من

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 229، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 149.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قر).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (قرر).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 277.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رزق).
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/ 82.
(8) السّمين، عمدة الحفّاظ: 2/ 87، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 324.
(9) أخرجه التِّرمذي في سننه، برقم: (2344)، وابن ماجَه، برقم: (4164)، وهو صَحِيحٌ كما في السِّلسلة الصَّحيحة، ص: 310.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسب).
(11) الرّاغب، المفردات: (حسب).

الحِساب؛ وذلك لأنَّهم يَعُدّون ذلك في مناقبهم[1]. والحِسابُ مصدرٌ بمعنى المحاسبَةِ، والحِساب في قولِه: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بمعنى الحَصْر؛ لأنَّ الحِساب يَسْتَلْزِمُ حصرَ الشَّيء المحسوبِ بحيثُ لا يَزيدُ ولا يَنْقُص[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدَّعْوَةُ إلى لُزومِ الدّارِ الآخِرَةِ والزُّهْدِ في الحياةِ الزّائِلَةِ

بيَّن الله سبحانه في هذهِ الآياتِ دعوةَ الرَّجل المؤمنِ لقَوْمِه؛ حيثُ قال لَهُم ناصحًا: يا قوم اتَّبعوا طريقي أَهْدِكُم سبيلَ الحقِّ والصَّواب، وذكّرهم بأنَّ الحياةَ الدُّنيا ما هي إلّا متاعٌ زائلٌ وقليلٌ، بينَما الآخرةُ هي دارُ الإقامَةِ والقَرار الدّائم، التي يَنْبغي العملُ مِن أجلها، وأوضَح لَهُم أنَّ مَن عَمِل سيِّئة فلا يُعاقب إلّا بقَدْرِها، ومَن عمِل صالحًا، سواءٌ أكان ذكرًا أو أنثى بِشَرْطِ الإيمانِ؛ فإنَّ جزاءَهُ دخولُ الجنَّة والتَّمتُّعُ بنَعيمها ورِزْقِها بلا حُدودٍ أو حِسابٍ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾:

الانْتِقالُ إلى مَقالَةٍ جَديدَةٍ ضِمْنَ سياقِ القِصَّةِ

الواو في ﴿وَقَالَ﴾ من قول الله سُبْحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾ للاستئنافِ، فهي تُفيد الانتقالَ إلى مقالةٍ جديدةٍ ضِمْنَ سياق القصَّة[4]؛ إذْ إنَّ حديثَ مؤمن آل فرعون يتألَّف مِن مقاطعَ متفرِّقة، قيلت بِحَسَب الحاجَةِ والمقام. فجملةُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾ مستقلَّة عن سابِقَتِها مع بقائِها في سياق التَّرابط العامِّ للحِوار المَحْكيِّ.

غرضُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوصولِ وصِلَتِهِ:

الشَّجاعةُ في إظْهارِ الحَقِّ

جاءَ التَّعبيرُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ في قول الله ﷻ:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 237.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 471.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ للإيماء إلى صِفَةٍ بارزَةٍ فيه يُعرَف بها وتُمَيِّزه عن غيره؛ وهي الإيمانُ الذي يُخالِف ما عليهِ حالُ قومِهِ، فيكون التَّعبير القرآنيُّ - ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ - قد جَعَلَ الإيمانَ عنوانًا له، ممّا يقتضي تفرُّدَه بالشَّجاعة في إظهارِ الحقِّ. وفي مجيء جُملة الصِّلة فعلًا إيماءٌ إلى أنَّه ينبغي لأدنى أهل الإيمانِ أن لا يَحْقِر نفسَهُ عنِ الوَعْظِ والنُّصْح[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

اسْتِقْرارُ مَعْنى الإيمانِ عِنْدَ المُخاطَبينَ

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الإيمان في قوله سُبْحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾، فلم يُذْكَر بِماذا آمن؛ لِلعِلْمِ بِهِ؛ فَإنَّ متعلَّق الإيمانِ معروفٌ عِنْدَ المُخاطَبينَ، أو أنَّهُ حُذِفَ لقصدِ إفادة العموم، أي: آمن بجميع ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ؛ لأنّ حذف المتعلّق مُؤْذِنٌ بالعموم، ولا تَنافيَ بينَ الدّلالتَيْن؛ لأنَّ الإيمانَ المَعْهودَ عندَ المُخاطَبين هو الإيمانُ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرْعًا.

غرضُ النِّداءِ بِـ (يا) ولَفْظِ القَوْمِ:

غَفْلَةُ المُخاطَبينَ عَمّا يوعَظونَ بِهِ

جاء النِّداءُ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ بالحرف (يا) وهو في الأصلِ لِنِداءِ البَعيد؛ لا لِبُعْدِ المُخاطَبين حقيقةً، بَلْ للإشارةِ إلى غَفْلَتِهِم عمّا يوعَظون به، فكان أسلوبُ النِّداء جاذِبًا انْتِباهَ المخاطَبين، مُسْتَميلًا أسماعَهُم ليُصْغوا إلى ما يُقال لَهُم، حيثُ أنزلَ القريبَ منزلة البعيد؛ تنبيهًا له لغفلته وضلاله. وفي نِدائِهِم بِلَفْظِ القَوْمِ في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ إشارةٌ إلى ارْتِباطِه بِهِم، وإبرازُ أنَّه لا قِيامَ لَهُ إلّا بِهِم، ممّا يَقْطَع احتمالَ التُّهمة في نُصْحِه لهم[2]؛ فهو يُخاطِبُهُم بلِسانِ المَحبَّة والشَّفقة والانتماء.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.

دِلالَةُ الأمْرِ في ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾:

تَكْمُنُ السَّعادَةُ غالِبًا فيما يَكْرَهُهُ الإنْسانُ أوْ يَجِدُ فيهِ مَشَقَّةً

﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ فعلُ أمر، وهو في الأصل يدلُّ على الإلزام بالفعل، وهو في الآية الكريمةِ دالٌّ على النُّصح والإرشادِ؛ لاشْتِمالِه على ما فيهِ مَصْلَحةٌ لهم في الدُّنيا والآخرة. وفي استعمالِ صيغَةِ الافْتِعال (الاتِّباع) في قولِه: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ دلالَةٌ على الدَّعوة إلى تَكْليفِ النَّفس بالاسْتِقامَةِ والهداية، إذِ السَّعادة تكونُ غالِبًا فيما يَكْرَهُهُ الإنسانُ أو يَجِدُ فيهِ مشقَّة[1]. فكان الأمرُ بالاتِّباعِ حثًّا لَهُم على طَرْحِ أهْوائِهِم والتِزامِهِم طَريقَ الهُدى.

بلاغَةُ المَجازِ في الأمْرِ بِالاتِّباعِ:

اتِّباعُ الحَقِّ طَريقُ النَّجاحِ والفَلاحِ

في قول اللّه سُبْحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ مجازٌ مركَّب؛ حيثُ صوِّرت الهدايَةُ في صورَةِ طريقٍ حِسّيٍّ يُسار فيه ويُسلك، والدّاعي في صورةِ دليلٍ يقودُ قومَه، بجامع أنّ كليهما يوصِل إلى غاية، وذلك على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وهذا المَجاز يُبْرِزُ عُمْقَ الصِّلة بين الدّاعي والمَدْعوّين، ويُظْهِرُ الاتِّباعَ وسيلةً للنَّجاة والفلاح.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿أَهْدِكُمْ﴾، ودلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ:

الهِدايَةُ مَسْلَكٌ جَليلٌ مُثْمِرٌ الرَّشادَ

﴿أَهْدِكُمْ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ فعلٌ مضارع مجزومٌ؛ لوقوعِه جَوابًا للطَّلب[2]. وجوابُ الطَّلب يُبْرِزُ وثيقَ الصِّلةِ بينَ الاتِّباع والهدايَةِ، ويَجْعَلُ الدَّعوة في مَقام الوَعْدِ الصّادق؛ فتكون الهدايَةُ المَذْكورة هُنا يقينًا مُتَحَقّقا لا أمرًا يُرتجى. وفي التَّعبير بالفعلِ المُضارِع ﴿أَهْدِكُمْ﴾ إشعارٌ بأنَّ الهدايةَ دائمٌ نَفْعُها، مستمرٌّ فَيْضُها، وأنَّها مسلَكٌ مُتَّصل مثمرٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 491.

الرَّشادَ في كلِّ خطوة يخطوها السّالك، ومفعولا الهدايةِ هنا هما ضميرُ الخطاب في ﴿أَهۡدِكُمۡ﴾ و﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ فِعْلِ الهِدايَةِ بِنَفْسِهِ:

شُمولُ الهِدايَةِ لِلتَّوْحِيدِ والعَمَلِ الصّالِحِ

عُدّي فعلُ الهداية بنفسه في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾؛ لإفادة الجَمْعِ بين الهداية إلى سبيلِ الرَّشاد، والهداية في سبيل الرَّشاد[1]، فهي تَشْمَلُ الهدايةَ إلى دين التَّوحيد وتركِ ما سِواه، والتَّوفيق للعمل الصّالح والثَّبات عليه، فلا يقتَصِرُ على الدّلالة فحسبُ، بل يشمَلُ الإعانَة المُسْتَمِرَّة على السَّير في هذا السَّبيل.

بلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾:

تَجْسيدُ المَعاني المَعْنَوِيَّةِ في قالَبِ المَحْسوسِ؛ تَقْريبًا لَها إلى النُّفوسِ

في قول اللهِ تعالى: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ مجاز بالاستعارةِ التّصريحيّة، وذلك في تصويرِ الهداية والإيمانِ في صورةِ طَريقٍ بيِّن المَعالم، تُفضي نِهايَتُه إلى الفَلاح والنَّجاة، فُجعِل الرَّشادُ غايةً تُدْرَكُ بالسُّلوك في هذا السَّبيل، كأنَّما هو مَسْلَك محسوسٌ معلومٌ لا عِوَجَ فيه، يدعو السّائرين فيه بِوُضوحِه واسْتِقامَتِه. وهذه الاستعارَةُ تُجسِّد المعاني المعنويَّة في صورةٍ حسّيَّة تُقرّب المعنى إلى النُّفوس، وتُشْعِر بأنَّ الهداية سبيلٌ مُمَهَّد، مَن سار فيه وصَل، ومَن حادَ عنهُ تاهَ، مِمّا يَزيدُ الخِطابَ قوَّةً وتأثيرًا.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ مادّةً وصيغةً:

مبالغةُ مؤمنِ آلِ فرعونَ في دعوته قومَه

دلّت استعمالاتُ مادّة (رشد) على اسْتِقامَةِ الطَّريقِ، والرُّشْدُ والرَّشَدُ والرَّشادُ: خِلافُ الغَيِّ[2]، وحقيقتُهُ: الهُدى والاسْتِقامَة[3]. وقد جاءت هنا مصدرًا مُعَرّفًا بـ(أل)؛ للدّلالة على شدّة رغبته في

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والحميريّ، شمس العلوم: (رشد).
(3) الحميديّ، تفسير غريب ما في الصحيحين، ص: 174.

هداية قومه، من حيثُ دعوتُه لهم إلى اتّباع طريق الرّشاد كلّه دونَ أن يفوتَهم منه شيء.

معنى (أل) في ﴿ٱلرَّشَادِ﴾:

سُلوكُ الطَّريقِ المُستَقيمِ يُؤَدّي إلى النَّجاةِ الكامِلَةِ

(أل) في ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ دالَّة على الكمال، والمعنى: أهدِكُم سبيلَ الرَّشادِ الكاملِ الذي لا تَسْري إليه شائبةٌ، ولا يلحقُها نقصانٌ بحالٍ، وهوَ السَّبيلُ المُستقيم لا يَضِلُّ سالِكُه، وهوَ مُفضي إلى النَّجاة التّامَّة.

بلاغَةُ التَّعْريضِ في الآيَةِ:

مـا يَسْلُكُهُ فِرْعَوْنُ هوَ طَريقُ الغَيِّ والضَّلالِ

في قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أسلوبُ تعريضٍ؛ حيثُ جاء التَّعريضُ بديعًا في إشارةٍ غيرِ صريحَةٍ إلى أنَّ ما عليهِ فِرْعونُ وقومُه هو سبيلُ الغَيِّ والضَّلال[1]، وذلك لأنَّه إذا ذُكِر سبيلُ الرَّشاد؛ اقْتَضى ذلك ضرورةً وجودَ سبيلٍ آخرَ مخالفٍ له؛ وهو سبيلُ الضَّلال الذي يسلكُه فرعونُ. وهذا التَّعريض أتى بحُسن البيانِ ليُدْنيَ الحقيقةَ دونَ تصريحٍ، ولَم يتضمَّن مواجهةً صَريحةً معَ فرعون، بلِ اكْتُفيَ بالإشارة البليغَةِ التي تُبيِّن التَّفاوت بين السَّبيلَين: سبيلِ الرَّشاد وسبيل الغيِّ، فكان ذَلِكَ أبلغَ في التَّأثير وأرسخَ في القَبولِ.

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

سَبيلُ الرَّشادِ الزُّهْدُ في الفانيَةِ والرَّغْبَةُ في الباقيَةِ

فُصِل قولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّه لَمّا قال: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أورث ذلك في نفس السّامع سؤالًا، وهو: ما حقيقة هذه السَّبيل؟ فجاء البيانُ أنَّها العدولُ عمّا يَفْنى إلى ما يبقى، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 168، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 277، والقِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 192.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 72.

غرضُ تَكْرارِ النِّداءِ بِـ ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

التَّذْكيرُ الحَثيثُ بِوُجوبِ النَّظَرِ إلى الأبْقى والأسْمى

كُرِّر النِّداء بـ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ في الآيةِ الكريمةِ؛ زيادةً في الاسْتِعْطافِ، وتَذْكيرًا لَهُم بصِلة القرابة بينَه وبينَهُم، فَهو لا يُريد لَهُم إلّا ما يُريدُهُ لنَفْسِه[1]. وفي تَكْرارِ النِّداء أيضًا تأكيدٌ على إقْبالِهِم؛ ليُبَيِّنَ لَهُم أنَّ الدُّنيا متاع زائل، وأنَّ الحياة الأبديَّة هي الغاية، فكان التَّكرار بمنزلةِ تذكيرٍ حثيثٍ لهم بِضَرورَةِ النَّظر إلى ما هو أبقى وأسمى؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ شدَّة تمسُّكهم بدينهم ورفضهم له ناشِئٌ عن حبِّهم للرِّئاسة والرَّفاهيَّة، وهذه كلُّها مِن متاع الدُّنيا الفاني، وأنَّ الخير الحقيقيَّ لَهُم في السَّعي وراء ما يُحَقِّق لهم السَّعادةَ الدّائمة في الآخِرَةِ[2].

بَلاغَةُ القَصْرِ وغَرَضُهُ في قوله: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾:

تَنْزيلُ تَكالُبِهِمْ عَلى الدُّنْيا مَنْزِلَةَ مَنْ يَتَوَهَّمُ خُلودَ مَنافِعِها

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ قصرٌ إضافيٌّ، وهو قصرُ موصوفٍ على صفة؛ إذْ قُصرت الحياةُ الدُّنيا على كونِها متاعًا، لا تتجاوز حقيقَتُها هذا الوصفَ، فليسَتْ هي إلّا نفعًا زائلًا مؤقتًا محدودَ الأجل. وجاء هذا القصرُ قصرَ قلبٍ؛ إذْ نَزَّل قومَه في تكالُبِهم على الدُّنيا ومنافِعها منزلةَ مَن يَتَوَهَّم خلودَ هذه المَنافِع، فصُرِف هذا التَّصوُّر عَن موضعِه إلى الحقيقة التي تَقْضي بأنَّ الدُّنيا متاعٌ[3].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ عَلى القُرْبِ:

تَـحْـقـيرُ أمْـرِ الحَياةِ الدُّنْيا

جاء التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾ الدّالِّ على القُرب في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾؛ لتَحْقيرِ شأنِ الدُّنيا بالقُربِ، كأنَّما يقول لَهُم: هذه الدُّنيا التي تَلْهَثون وراءَها وتُقيمون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 149.

لها وزنًا ليست إلّا متاعًا زائلًا، يوشِكُ أن يَنْتَهيَ. فالتَّعبير باسْم الإشارة الدّالِّ على القُرْب يُصَوِّر الدُّنيا على حقيقَتِها، بِوَصْفِها أدْنى وأحقرَ مِن أن تُعَظَّم أو يُغْتَرَّ بها.

معنى (أل) في ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾:

الحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ زائِلٌ

(أل) في ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ مِنْ قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يُراد بها العَهْدُ العِلْميُّ؛ إذْ تُشيرُ إلى الحياةِ المَعْلومَةِ المُسْتَقِرَّةِ حقيقَتُها في الأذهانِ؛ وهيَ الحياة الدُّنيا التي يَلْهَثُ وراءَها الخَلْقُ، فتَخْصيصُها بـ (أل) يُميّزها عن الحياة الأخرى الباقيَةِ.

نُكْتَةُ وصْفِ الحَياةِ بِـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

الحَياةُ الدُّنْيا حَقيرٌ مَرْتَبَتُها قَليلٌ شَأْنُها

وُصِفتِ الحياةُ بـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ للإشارَةِ إلى دُنوِّ مرتَبَتِها ودناءَةِ شَأْنِها، فهي أدْنى ما يكونُ مِن مراتِبِ الحَياةِ، وأحقَرُ ما يُطلب مِنَ الغايات[1]. وهذا الوصفُ يَحْمِلُ في طَيّاته تحقيرًا لها وتنبيهًا للنُّفوس على حقارَتِها وزَوالِها؛ ليَصْرِفَ الهِمَم عنها إلى ما هو أرفعُ قَدْرًا وأبقى أثرًا، وهي الحياةُ الآخِرَةُ التي تَسْتَحِقُّ أن تُبذَل لَها المَساعي.

نُكْتَةُ التَّنْكيرِ في ﴿مَتَٰعٌ﴾:

إيقاظُ القُلوبِ مِنْ غُرورِها

نُكِّر لفظُ ﴿مَتَٰعٌ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾؛ للإشارَةِ إلى حقارَةِ هذا المَتاعِ وضَآلته، فليسَ هو إلّا نَفْعًا زائلًا يتمَتَّع به الإنسانُ زمنًا يسيرًا ثُمَّ يَضْمَحِلّ. فالتَّنكير هنا أفادَ التَّقليل والتَّحقير، فكأنَّما صوّرت الدُّنيا في صورة جيفَةٍ لا ينالُ منها المرءُ إلّا قدرَ الضَّرورة[2]. فكان هذا التَّعبيرُ البليغُ موقِظًا القلوبَ مِن غُرورِها، ومُبَيِّنا أنَّ الإخلادَ إلى الدُّنيا أصلُ الشُّرور ومنبَعُ الفِتَنِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 72.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 72.
(3) القِنّوجيّ، فتح البيان: 12/ 192.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

الدُّنيا والآخِرةُ بَيْنَ الزَّوالِ والخُلودِ

الواوُ في ﴿وَإِنَّ﴾ من قول الله سُبْحانَه: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ عاطفةٌ الجملة بعدها على جملة ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾؛ لِما بينَ الجُمْلَتَين من اتّصال، فإنَّهما قد اشْتَرَكَتا في الخبريَّة، وبينَهُما جامع وهميٌّ وهو الضِّدّيَّة في ذِكر المنزلة الدَّنيئة للحَياة الدُّنيا، والمَكانةِ الرَّفيعة للدّار الآخرة. وحَسَّن الوصلَ اشتراكُهما في الاسميَّة. والعطفُ بينَ الجُملتين يَرْبِطُ بينَ الزَّوال والخلود؛ ليوَضِّح أنَّ الآخرة - بكونها دارَ القرارِ - هي الجديرةُ بالسَّعي، وأنَّ الدُّنيا لا تَبْلُغ شيئًا من مَنْزِلَتِها.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

دلّ تعريف ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ على الحضور الذّهني العهديّ، فهي الآخرة التي أشار إليها كلّ الأنبياء السّابقون، والتي يدركونها في وجدانهم وإحساسهم الفطريّ.

فائِدَةُ التَّوْكيدِ بِـ (إنَّ) والجُمْلَةِ الاسْميَّةِ:

الآخِرَةُ دارُ القَرارِ الدّائِمِ والخُلودِ

جاء قولُ الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ مُؤكَّدًا بـ (إنَّ) والجملةِ الاسْميَّة؛ لتقريرِ المعنى في النُّفوس وإحكامِه؛ حيثُ أفادَت (إنَّ) تقويةَ الحُكم وتثبيتَه، وجاءتِ الجملةُ الاسميَّة دالّةً على الدَّوام والثُّبوت؛ لتُظهر أنَّ الآخرة هي المُستقَرُّ الحقُّ الذي لا يَطْرَأ عليه زوالٌ. وهذا التَّوكيد جاء مناسبًا لجلالِ المَقام، موقِظًا القلوبَ من غَفْلَتِها، صارفًا الأبصارَ عن الدُّنيا الفانية إلى الآخرةِ الباقيَة.

بلاغَةُ القَصْرِ في الآيَةِ:

إبرازُ عَظَمَةِ الدّارِ الآخِرَةِ

في قولِ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريقِ تَعْريفِ جُزْأَي الجملةِ، و﴿هِيَ﴾ ضميرُ فصلٍ مؤكِّد للقَصر لا مؤسِّس له؛ إذْ قَد تقرَّر في القواعد أنَّ ضميرَ الفَصْلِ لا يكونُ دالًّا على القصر إلّا إذا تعيَّن طريقًا للقَصْر، أمّا إذا وُجِد طريقٌ

آخَرُ للقَصْر - كما في هذا المَوْضِع - فَهو مؤكِّد للقَصْر لا مُنْشِئٌ له. وإيرادُ الجملةِ بأُسْلوبِ القَصْرِ فيه إبرازُ عظمةِ الآخرة وترسيخُ حقيقَتِها في النُّفوس، بكونِها المُسْتَقَرّ الذي لا زوالَ له، مع نفي كلِّ وصفٍ مُشابِهٍ عنِ الدُّنيا؛ لتُصرَف القلوبُ عنِ التَّعلُّق بها، وتُهيَّأ للزُّهد فيها والتَّوجّه إلى ما أعدّه اللّهُ سُبحانَهُ في دار البَقاء.

نُكْتَةُ إضافَةِ ﴿دَارُ﴾ إلى ﴿ٱلْقَرَارِ﴾:

إعْـــلاءُ شَـــأْنِ الآخِرَةِ

أُضيفَ لفظُ ﴿دَارُ﴾ إلى ﴿ٱلْقَرَارِ﴾ من قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾؛ لإفادَةِ الاخْتِصاص، وذلك مفيدٌ أنَّ الآخرة هي وحْدَها موطِنُ الاستقرارِ الذي لا يَعْتَريه اضطرابٌ، ولا يَطْرَأُ عليه زوالٌ. وفي هذهِ الإضافَةِ إعلاءٌ لشأنِ الآخرة؛ إذْ قُرِن ذِكْرُها بالقرارِ الكاملِ الثّابت، الذي يُباين اضْطِرابَ الدُّنيا وفناءَها.

دلالةُ التَّعْبيرِ بِالقَرارِ مادَّةً وصيغَةً:

دوامُ الآخِـــرَةِ وعَدَمُ زَوالِها

جاء التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلْقَرَارِ﴾ في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ يَحْمِل دِلالاتٍ رفيعةً مستمدَّة من أصلِ مادَّته وصيغته؛ إذْ تُشيرُ مادَّةُ القافِ والرّاء إلى التَّمكُّن والثُّبوت، وما يتفرَّعُ عنهُ مِنَ السُّكون والاطْمِئْنان والإقامةِ الدّائمَة، فجاءَ وصفُ الآخرة بـ ﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ ليُبَيِّن أنَّها موطِنُ الخُلود نعيمًا كان أو عذابًا. والتَّعبير بصيغَةِ المَصْدَرِ ﴿ٱلْقَرَارِ﴾ يُفيد الاستقرارَ التّامَّ المُطْلَقَ، مُبالغًا في بيانِ ثبوت الآخرة على وجْهٍ لا يدخلُهُ الزَّوالُ بحالٍ.

بلاغة المقابلة بين الحالين:

لا يستوي حالُ مـــنِ اشـــترى الـدّنيا مـع مـنِ اشترى الآخَرة

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ مقابلةٌ بين حالَيْن، حالِ الدّنيا، وحالِ الآخَرة، وكلاهما جاء بأسلوب القَصْر، فبين ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ طباقُ إيجاب، وكذلك بين ﴿مَتَٰعٌ﴾ و﴿ٱلْقَرَارِ﴾ تضادٌ، فالأوّلُ منهما زائلٌ بخلاف الثّاني الباقي.

نُكْتَةُ فَصْلِ قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

مُناسَبَةُ الجَزاءِ في الآخِـرَةِ لِأعْمالِ العِبادِ

فُصِل قولُ الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عمّا قبلَه؛ لوُقوعِه بيانًا لجملة ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[1]؛ فالفَصْل لكمال الاتّصال؛ لأنّها جاءت مؤكِّدة أو مفسِّرة للآية السّابقة، والقصدُ بيانُ أنَّ الجزاء في الآخرة مناسِبٌ للعمل، فلا يُزاد على ما كسبَهُ المرءُ، مِمّا يُعَزِّز العدلَ في الدّار الآخرة، وأنَّ كلَّ عملٍ في الدُّنيا له جزاؤُه في دارِ القَرارِ.

بلاغةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الشَّرْطيَّةِ:

تَـوْفِيَـةُ الـعِـبادِ جَزاءَ أعْمالِهِمْ

عُبِّر بالجملة الشَّرطيَّة في قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ للدّلالة على أنَّ الجزاءَ مُتَوَقِّف على ما قَدَّم العبدُ من عمَلٍ، فلا يُزاد عليهِ ولا يُنْقَص منه. وفي هذا بيانٌ واضحٌ أنَّ الحِساب في الآخرة يكونُ بِما يُناسِب الفعل؛ فلا يُظلم أحَدٌ، بل يوفّى كُلُّ عامِلٍ جزاءَهُ.

دلالَةُ تَقْديمِ السَّيِّئَةِ على العَمَلِ الصّالِحِ:

تَحْذيرُ المُخاطَبينَ وإنْذارُهُمْ

قُدِّم ذِكْرُ السَّيِّئة على العملِ الصّالح في قولِ الله سُبْحانَه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ لِمُلاءَمَتِه حالَ المخاطَبين، وهُم قومُ فِرْعون الذين كانوا في غَفلة وتمادٍ في الضَّلال، فكان تقديمُ السَّيِّئة أوَّلًا على وجهِ التَّحذير والإنْذار؛ إذْ هو الأنسَبُ لِما هُم عليهِ من الباطلِ[2].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿سَيِّئَةً﴾ و﴿صَٰلِحًا﴾:

بَـيـانُ عُـمـومِ الجَزاءِ

نُكِّرت كَلِمَتا ﴿سَيِّئَةً﴾ و﴿صَٰلِحًا﴾ من قول الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 124/ 149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 73.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لإفادة العُموم والشُّمول؛ لأنَّهما نَكِرَتان واقِعَتَيْن في سياق الشَّرط، وذلك مِن ألفاظِ العُموم، فكلُّ سيِّئةٍ مَهْما كانَت نوعًا أو قَدْرًا تُجازَى بِمِثْلِها، وكلُّ عمَلٍ صالِح مَهْما كانَ قليلًا؛ فإنَّه يُثاب عليه[1].

دلالةُ قولِه: ﴿سَيِّئَةَ﴾ و﴿صَٰلِحًا﴾ على المحذوفات:

إقامة الصّفتَين مقامَ الموصوفيْن إيجازًا

جاءت هاتان اللّفظتان صفتان لموصوفَيْن محذوفَيْن، والتّقدير: من عمل عملةً سيّئة...، ومن عمل عملًا صالحًا...، فأقيمت الصّفتان مقام الموصوفيْن إيجازًا.

معنى الفاءِ في ﴿فَلَا﴾:

تَقْويةُ الرَّبْطِ بَيْنَ الفِعْلِ والجَزاءِ

الفاءُ في ﴿فَلَا﴾ مِن قول اللّه سُبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط[2]؛ لوقوعه مَنْفيًّا، وهي تفيد تقويةَ ارتباط الجزاء بالفعل ارتباطًا وثيقًا، حتّى كأنَّ الجزاء يأتي بعد العمل بلا مهلةٍ، ممّا يُبرز حتميَّة الوُقوعِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

التَّناسُبُ بَيْنَ الفِعْلِ والجَزاءِ

جاء التَّعبير بـ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ لدلالة مادَّة الجيم والزّاي والحرف المُعْتَلِّ على معنى المُكافَأة والعطاء، ممّا يُبيِّن التَّناسُبَ بينَ العمل والجزاءِ. وفي بناءِ الفِعْلِ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه إظهارٌ لصُدور الجزاءِ مِنَ اللّهِ تعالى الذي لا شَريكَ لَهُ في مُلْكِه؛ لأنَّه من المُتَقَرِّر أنَّه لا يُجازي في الآخرةِ على الأعمالِ إلّا هو سُبْحانه، فكانَ في طَيِّ الفاعل لفظًا تعظيمٌ للّه ﷻ[3].

بلاغَةُ القَصْرِ وغَرَضُهُ في قوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾:

إظْهارُ كَمالِ العَدْلِ الإلَهيِّ

في قول اللّه ﷻ: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ أسلوبُ قصرٍ، وطريقُه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 73 - 74.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 491.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 74.

النَّفي والاستثناء، وهو أقوى طُرُقِ القَصْر، وفيه قصرُ الجزاءِ على السَّيِّئة إلّا بِمِثْلِها، فلا يتجاوَزُه إلى ما هو أكبَرُ منهُ، فهو من قَصْر الموصوف على الصّفة، وهو من القصر الإضافيّ، والغرضُ مِن جملةِ القَصر بيانُ كمالِ العَدْلِ الإلهيِّ، ويُظْهِر أنَّ الجزاء لا يتجاوَزُ حَدَّ الفِعْلِ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾:

جملةُ ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ في محلِّ جزمٍ جوابُ الشَّرط[1]، وفي جملةِ الشَّرط دلالةٌ على التَّناسُب المُحْكَم بين الفِعْلِ وعاقبته، كأنَّ الشَّرط قد أُثبت ليكون الجزاءُ مطابقًا للسَّيِّئة، لا يزيدُ عنها أو يتَجاوَزُها.

التَّناسُبُ المُحْكَمُ بَيْنَ الفِعْلِ وعاقِبَتِهِ

نَوْعُ الاسْتِثْناءِ في الآيَةِ:

الاستثناءُ في قول الله ﷻ: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ استثناءٌ مُفَرَّغ، وجاءَ الاستثناء مؤكِّدًا أنَّ الجزاءَ لا يتجاوَزُ السَّيِّئة، ولا يَشْتَمِلُ على شيءٍ آخرَ سِوى الجزاءِ بِمِثْلِها، مِمّا يَعْكِسُ كمالَ التَّعيين في الجزاءِ.

إبْرازُ دِقَّةِ العَدْلِ الإلَهيِّ في الجَزاءِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمِثْليَّةِ في ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾:

في التَّعبير بالمِثْليَّة في قول الله سُبحانه: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ دلالةٌ على المُماثَلَةِ في الوصف الذي دلَّ عليه اسمُ السَّيِّئة؛ وهي المُماثلةِ التّامَّة بين العمل السَّيِّء وجزائه[2]، فتكون الآيةُ مؤكِّدةً أنَّ الجزاء لا يَعْدو أن يكونَ مطابقًا لعملِ السّوء، ولا يُجزى عَنِ المعصية إلّا بِمِثْلِها.

المُماثَلَةُ التّامَّةُ بَيْنَ العَمَلِ السَّيِّء وجَزائِهِ

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾:

الواوُ في ﴿وَمَنْ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُملة ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ لِما

التَّناسُبُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ

(1) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 158.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 150.

بينَ الجُملتين من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذِ الجملتانِ اشْتَركتا في الخبريَّة، وبينَهُما تناسُبٌ معنويٌّ وهو الجامِعُ الوهميُّ؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّضادِّ، وحَسَّن الوصلَ اتِّفاقُ الجُملتينِ في الاسميَّة.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾:

شُمولِيَّةُ الخِطابِ الإلَهيِّ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قول الله سُبْحانَه: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ يدلُّ على البَيان[1]، وجيءَ بِهِ لإيضاح شُمول الخِطاب الإلهيِّ لجميع العِباد، فلا يَخْرُج أحدٌ عن دائرَةِ الجَزاء، سواءٌ أكان ذكرًا أم أُنْثى، وليُؤَكِّد أنَّ مناطَ القَبول هو العملُ الصّالح مقرونًا بالإيمانِ، دون اعتبارِ أمرٍ آخرَ. فحرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ أفاد إحاطةَ المَعنى مع إيجاز اللَّفظ، وأبرزَ عدلَ اللهِ تعالى المطلقَ ورحمتَه الشّاملة.

نُكْتَةُ تَنْكير ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾، ودلالة ﴿أَوۡ﴾ بينهما:

عُمومُ الجَزاءِ وشُموليَّتُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ لإفادَةِ العُموم؛ لكَوْنِهما نَكِرَتَيْنِ في سياق الشَّرط، فلا يُراد به فردٌ بعَيْنِه أو صِنفٌ مخصوصٌ، بل يُراد به كُلُّ ذكَرٍ وكلُّ أُنْثى على أيِّ صِفَةٍ كانوا وفي أيِّ حالٍ وُجِدوا، تأكيدًا على شُمول الجزاءِ والعدل الإلهيِّ. ودلّ حرف ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ على التّسوية، أي: يستوي في ذلك الذّكرُ والأنثى، فلا فرق بينهما من حيثُ الأجرُ والثّواب، ومن حيثُ المؤاخذةُ والإثم.

بلاغةُ الطِّباقِ بَيْنَ ﴿سَيِّئَةَ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾، وبَيْنَ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾:

التَّفاوُتُ البَيِّنُ بَيْنَ العَمَلِ السَّيِّءِ والعمل الصّالح

في قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يظهر الطّباقُ بين ﴿سَيِّئَةَ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾ وبَيْنَ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾؛ لإبراز التَّباين بين الضِّدَّين، وبيانِ المَعنى بوُضوح. فالطِّباقُ بين ﴿سَيِّئَةَ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾ يُبيِّنُ التَّفاوتَ بين العملِ المَذموم والعمل المَرضيّ؛ لإظهار الفرقِ بين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 74.

عاقِبَتَيْهِما. وأمّا الطِّباق بَيْنَ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾؛ فيُفيد العمومَ والشُّمول، وفيه إظهارُ أنَّ الجزاء لا يختَلِفُ تبعًا للصِّفات الذّاتيَّة.

فائدةُ قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾:

العملُ الصّالِحُ مَقْبولٌ مِنْ كُلِّ مَنْ جاءَ بِهِ

قُيِّد عملُ الصّالحات بـ ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾؛ لإفادَةِ الشُّمول والعموم، وفيه احتياطٌ في الخِطاب لاحتمالِ نَقْصِ الأنثى[1]، فيكون الحكمُ شامِلًا العبادَ جميعَهم، والمقصودُ الإخبارُ بأنَّ العملَ الصّالح مقبولٌ مِن أيٍّ كان، سواءٌ أكان ذلك مِن الذَّكر أم مِنَ الأنثى، وليسَ المقصودُ بجُمْلَةِ ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ المساواةَ؛ إذْ لا مناسبةَ لِهذا المَعنى في هذا المَقام[2].

مَعْنى الواوِ ومَوْقِعُ الجُمْلَةِ بَعْدَها في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾:

الإيمانُ شَرْطٌ في قَبولِ العملِ الصّالِحِ

الواوُ في ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حاليَّةٌ، والجملة بعده في موضع نصبٍ حالٌ، وفيه تنبيه إلى أنَّ العمل الصّالح لا يُعْتَدُّ به إلّا مقرونًا بالإيمانِ؛ لأنَّ الحالَ قيدٌ وشرطٌ للحُكم التي وقعَت فيه، ويتضمَّن ذلك الإيماءَ إلى عِظَم شَرَفِه ومزيدِ جزائِه وثوابِه[3].

نُكْتَةُ تقديمِ الذّكر على الأنثى:

تقدّمت لفظة ﴿ذَكَرٍ﴾ في الآية الكريمة على لفظة ﴿أُنثَىٰ﴾ من باب الغالب في استعمال القرآن والمعهود من لغة العرب في جعلها تابعةً له وداخلةً في حُكمه.

بلاغةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾:

الإيمانُ النّافِعُ ما كانَ ثابِتًا مُسْتَمِرًّا

في إيراد جملة الحال اسميَّة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الإيمان

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 323.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 151.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 323.

المقبولَ هو ما كان ثابتًا مستمرًّا مع صاحبِه حتّى يَلْقى ربَّه؛ إذْ مَن عرَّض إيمانَه للبُطلان والنَّقض؛ ذهبَت أعمالُه الصّالحة سُدًى، وحَبِطَ ثوابُها ولم يُعتدَّ بها. فكانت الجملةُ الاسميَّة دالَّةً على الثُّبوت والدَّوام، وأنَّ الإيمانَ الذي يُقبل هو الإيمان الدّائم المُلازم للعَبْدِ حتّى المَمات.

دلالَةُ الفاءِ، وبَيانُ المَوْقِعِ النَّحْويِّ لـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ﴾:

إبْـرازُ السَّبَبيَّةِ بَـيْنَ الإيـمـانِ والعَمَلِ الصّالِحِ وبَيْنَ الجَنَّةِ

الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ رابطةٌ للجواب؛ لكون الجوابِ جُملة اسميَّةً، وهي مشيرةٌ إلى معنى السَّببيَّة، أي: أنَّ دخول الجنَّة مسبَّبٌ عن الأعمال الصّالحة المَقْرونَة بالإيمان[1]، وجملةُ (أولَئِكَ يَدْخُلونَ) في محلِّ جزمٍ جوابُ الشَّرط[2]، وذلك دالٌّ على تحقُّق الجزاء الحَسَن لأهل الإيمان والعمل الصّالح.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ (أولَئِكَ) الدّالِّ عَلى البُعْدِ:

عَظَمَةُ شَأْنِ أهْلِ الإيمانِ والعملِ الصّالِحِ

جاء التَّعبير باسم الإشارة (أولئك) الدّالِّ على البُعْد في قول الله تَعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ للدّلالة على عظَمةِ الشَّأن ورِفعة المَقام، وعُلوِّ همّة مَن يحقِّق الأعمالَ الصّالحة مع الإيمان، فيكون هؤلاء في منزلٍ رفيع ومقامٍ عالٍ يليق بما اتَّصفوا به من صلاحٍ وإيمان[3]. وفي التَّعبير باسم الإشارة (أولَئِكَ) أيضًا دلالةٌ على أنَّ مَن وُجِدَت فيه الأوصافُ المُتَقدِّمة مِنَ العمَلِ الصّالح والإيمان؛ اسْتَحَقَّ ما يُذْكَر بعدُ مِن جزاءٍ عظيم؛ وذلك لأنَّ هذه الأوصافَ هي التي جَعَلَتْ له هذا الاستحقاقَ، كما أنَّ إيرادَهُ بعدَ الجُملة الشَّرطيَّة يُبرِز الارتباطَ الوثيقَ بين العمل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 74.
(2) صافي، الجدول: 24/ 250.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 151.

والإيمان، وبين الجزاء المُتَرَتِّب عليهما؛ ليكونَ ذلك بِمَنزلةِ توكيدٍ على أنَّ الجزاء هو نتيجةٌ متحقِّقَةٌ لِما تقدَّم من أوصاف[1].

غرضُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ:

تَرْغيبُ النُّفوسِ لِلإقْبالِ عَلى الطّاعَةِ

جاء التَّعبير بالجملةِ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ لتأكيدِ مَعْنى دوامِ الجزاء واستمرارِه، ففيهِ إظْهار عظَمةِ الثَّواب وجلالِه، ممّا يَقْتضي تغليبَ الرَّحمة الإلَهيَّة والتَّرغيبَ في الجزاء الحسَن عند اللّه سُبْحانه، فيكون ذلك أدْعى لترغيبِ النُّفوس للإقبالِ على طاعةِ اللّهِ تعالى[2].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَدْخُلُونَ﴾:

إبْـرازُ تَـحَـقُّـقِ الوَعْدِ الإلَهيِّ

جاء البيانُ القرآنيُّ معبِّرًا بالفعلِ المُضارع ﴿يَدْخُلُونَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ لتصويرِ فِعْلِ الدُّخول كأنَّه حاضرٌ وماثل أمامَ الأعْيُنِ، فيكونُ ذلك أدخلَ في بيانِ تحقُّق الوعدِ الرَّبّانيِّ وإشعارِ المُؤمن بقُرْب النَّعيم.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿يَدْخُلُونَ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَـيْنَ الـقِـراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ ﴿يُدْخَلُونَ﴾ بالبناء للمفعولِ: ابنُ كثيرٍ وأبو عَمْرٍو وشعبَةُ وأبو جَعْفَرٍ ويعقوبُ، وقرأ الباقونَ ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل[3]، فقراءة الفعلِ بالبِناء للمفعولِ تُحَقِّق التَّناسب الصّوتيّ والمَعْنَويَّ بين فعلِ ﴿يُدْخَلُونَ﴾ والفعلِ الوارد بعدَهُ ﴿يُرْزَقُونَ﴾. وأمّا قراءة الفعلِ بالبناء للفاعل؛ ففيها نسبةُ الدُّخول إليهم؛ لإبراز ارتباطِ الجزاء بفاعلِ العمل[4]، حتّى كأنَّهم هم الذين يُسارِعون إلى الجنَّة بأنفُسِهم حالَ صُدور الإذنِ لَهُم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 75.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 232.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 252.
(4) ابن خالويه، الحجّة، ص: 316.

نُكْتَةُ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ عَلى المُسْنَدِ الفِعْليِّ:

انْفِرادُ المُؤْمِنينَ بِدُخولِ الجَنَّةِ

قُدِّم المُسْنَدُ إليه (أُوْلَئِكَ) على المُسْنَدِ الفعليِّ ﴿يَدْخُلُونَ﴾ في جملة جوابِ الشَّرط ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ لإفادَةِ الحَصْرِ والقصْرِ، فالمَعْنى: لا يَدْخُل الجنَّةَ إلّا هؤلاء الذين اجتمعَ لَهُم شرَفُ الإيمانِ وزكاءُ العملِ الصّالح. وهذا التَّقديم يُبرز انفرادَهم بهذا الجزاءِ العَظيم، ويُرسِّخ في الأذهانِ أنَّ مَن مات على الشِّرْكِ والفسادِ؛ حُرِم هذا النَّعيم حَتْمًا[1].

معنى (أَلْ) في ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾:

الإشـــارةُ إلى الجَنَّةِ المَعْهودَةِ الكامِلَةِ

(أَلْ) في ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ للعهدِ العلميِّ، فهي تُشير إلى الجنَّة المعهودة عند أهل الإيمانِ، تلك التي وعدَ اللّهُ بها عبادَه الطّائعين. ويجوز أن تكون (أل) دالَّة على الكمالِ، أي: الجنَّةَ الكاملة بما فيها مِنَ النَّعيم المُقيم. ولا تنافيَ بينَ الدّلالتَيْن؛ لأنَّ الجنَّة الكاملة هي الجنَّة المعهودةُ عند أهلِ الإيمانِ.

بلاغةُ الاحْتِباكِ في الآيَةِ:

الإيجازُ والإحْكامُ في بَيانِ الجَزاءَيْنِ

في قول الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ احتباكٌ وهو المُسَمّى بحذفِ التَّقابل أو الحذف المُقابَليّ؛ وذلك لأنَّه حُذِفَ من طَرَفَي الكلام ما أُثبت في مُقابَله، فذِكْرُ المُماثَلة في الجزاء عن السَّيِّئة عدلًا في قوله سُبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ﴾ يدلُّ على مُضاعفَةِ الأجر على الحسنَةِ فَضْلًا، كما هو مقرَّر في عدلِ اللّهِ تَعالى وفَضْلِه. ثُمَّ ذُكِرَ إدخالُ الجنَّة لِمَن عَمِلَ الصّالحات في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهو يدلُّ بالمُقابلَةِ على أنَّ مَن عَمِلَ السَّيِّئات ولَم يُؤْمِن؛ يُجازَى بإدخالِه النّار[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 151.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 75.

فكان الاحتباكُ هُنا سبيلًا إلى الإيجازِ مَع الإحكام؛ حيثُ اكْتَفى النَّظم القرآنيُّ بذِكْرِ أحدِ طرَفَي الجَزاء في كلِّ حالٍ، وأومأ إلى الآخر بما يَلْزَمُ مِنَ المَقام؛ ليَجْمَع بينَ التَّرغيب والتَّرهيب في أوجز لفظٍ وأبدعِ بيانٍ.

نُكْتَةُ فَصْلِ قوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾:

بَيانُ نَعيمِ الجَنَّةِ بَعْدَ دُخولِها

فُصِل قولُ الله سُبْحانه: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عن قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ لِما بينَهُما مِن شِبْهِ كمال الاتِّصال، فالجملةُ الثّانية مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ إذْ إنَّ قولهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ يبعَثُ في نَفْسِ المُتلقّي سُؤالًا وهو: ماذا يكونُ لَهُم في دُخولِهم؟ فجاءَ الجوابُ في قولِهِ ﷻ: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

نُكْتَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿يُرْزَقُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ:

إظْهارُ فَضْلِ اللهِ تَعالى في رِزْقِ الجَنَّةِ

بُني الفِعْلُ ﴿يُرْزَقُونَ﴾ للمفعول في قول الله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لإظهارِ الاستغناءِ التّامِّ عن الأسبابِ الدُّنْيَويَّة، فالرِّزق في الجنَّة يُساق إليهم مِنَ الله سُبْحانه، لا يَفْتَقِرُ إلى سببٍ، بل هو فضلٌ يتنزَّل عليهم على وجهٍ يتجاوَزُ عادةَ البَشَرِ وعُرْفِ الدُّنيا[1].

دلالةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفيَّةِ وتَقْديمِها:

غَـزارَةُ الـرِّزْقِ وتَـغَـلْـغُـلُـهُ في الجَنَّةِ

حرف الجرِّ (في) من قول الله ﷻ: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهو مفيدٌ غزارةَ الرِّزق وتغلْغُلَه في الجنَّة، فلا يكون رِزْقًا مؤقَّتًا أو عابرًا، بل متغلغِلٌ في جميع أرجائِها، فلا يَنْقَضي ولا يَنْحَسِر. وفي تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فلم يرد النَّظم القرآنيُّ: (يُرزقون بغير حساب فيها)؛ وذلك لإفادة اختصاصِ الرِّزق الذي لا ينقطِعُ بالجنَّة دون غيرها، فالجنَّة هي موطِنُ النَّعيم الكامل، ومستقَرُّ المِنَح والعَطايا، كما أنَّ في هذا التَّقديم مراعاةً للتَّناسب الصَّوتيِّ لرُؤوس الآي.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 75.

معنى الباء في قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

الأصل في معنى الباء إفادةُ الإلصاق والملابسة، حتّى بات هذا المعنى علمًا لها، والمراد هنا: أنّهم يدخلون الجنّة دخولًا ملابسًا ومُلازمًا لعدم حسابهم.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿حِسَابٍ﴾:

إبْـــرازُ سَـعَـةِ النَّعيمِ في الجَنَّةِ

نُكِّر لفظ ﴿حِسَابٍ﴾ في قول الله سُبْحانه: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لإفادَةِ العُموم؛ لوُقوعِ اللَّفظ المُنَكَّر في سياق النَّفي بـ (غير)، فيُفيد ذلك سعةَ النَّعيم وفَيْضَه وجريانَهُ، بحيثُ لا يَنْقَضي ولا يَنْقُص بحالٍ مِنَ الأحوال.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

رِزْقُ الجَنَّةِ لا نِهايَةَ لَهُ ولا انْقِطاعَ

في قول الله سُبحانه: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كنايةٌ عن سعَةِ الرِّزق ووَفْرَةِ النِّعم، وأنَّ الرِّزق في الجنَّة لا نِهايةَ له، ولا يُقَيَّد بحسابٍ ولا يتوقَّف عندَ حدٍّ، بل هو مُغْدَقٌ به مِن غيرِ انقطاع، فتَظَلُّ النِّعَمُ تتجدَّد وتَتَّسِعُ بِلا حَصْرٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العَمَلُ والفِعْلُ والصُّنْعُ:

العَمَلُ أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ، والصُّنْعُ أخَصُّ مِنْهُما

يَجمع هذه الألفاظَ الثَّلاثةَ: معنى التَّأثير في الشَّيء، فالفِعْلُ هو التَّأثير في الشَّيء مِن جهةِ مُؤَثِّر، وقد يقع بنيَّة أو بدونها، ويقع الفعلُ دفعةً واحدة في الغالب، والعمَلُ إيجادُ الأثَرِ في الشَّيء، كقَوْلِهم: فلانٌ يعمَلُ الطّين خَزَفًا، ولا يُقال: يَفْعَلُ ذلكَ؛ لأنَّ المُرادَ مِن ذلكَ الشَّيء هو إيجادُه. كما أنّ العمل يُطلَق لما يمتدّ زمانه، ولا يقع إلّا مقصودًا، وأمّا الصُّنْعُ؛ فَهو تأثيرٌ في شيءٍ ما على وجهِ الإتْقانِ.

والفِعْلُ في الاستعمالِ القُرْآنيِّ إذا أُطْلِقَ في موضعِ القُدْرَةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 151.

الإلهيَّة؛ فإنَّه يَدُلُّ على الوعيد الشَّديد وسرعة إنفاذِ الأمرِ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6]، وقولِه سُبحانَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]. ويَرِدُ الفِعْلُ مُرادًا به السُّرعةُ وعدمُ الإبطاءِ، كقوله تعالى عنِ المَلائكة: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النّحل: 50]، وقولِه: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحجّ: 77]؛ لأنَّه بِمَعْنى: سارعوا. والعمَلُ يَرِدُ لِما فيه امتدادٌ مِنَ الزَّمن، كما قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: 13].

وأمّا الصُّنع؛ فهو أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ مِن جهةِ أنَّ الفعلَ يأتي في الحيِّ والجماد وغيرِهما، ولا يأتي الصُّنع إلّا في العالمِ أو العاقلِ؛ لأنَّ الصُّنع يحتاج إتقانًا في العمل وإحكامًا لهُ[1].

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 186 - 188.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»